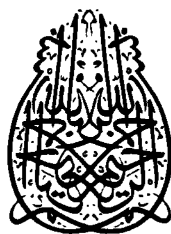
من رسائل شيخ الإسلام
(٢)

الزهد والورع والعبادة

تأليف
شيخ الإسلام ابن تيمية

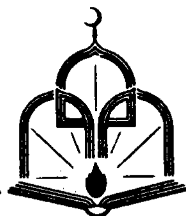
تحقيق
حماد سلامة

إشراف
الدكتور محمد عويضة



الزُّهْدُ وَالوَرَعُ وَالعِبَادَةُ

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م



شارع الفاروق - بجانب جمعية المركز الإسلامي
مكتبة المنار هاتف ٩٨٣٦٥٩ - ص.ب ٨٤٢ الزرقاء - الأردن

المقـــدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه الغر الميامين ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد:

فلا شك أننا نعيش في عصر يكتظ بالكثير من المغريات والأهواء والفتن والشهوات وطرق الضلال والغي التي قد تنجذب لها بعض النفوس فتميل عن الصراط المستقيم والنهج القويم الذي أراده لها خالقها عز وجل، وارتضاه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لذا فإن النفس البشرية بحاجة ماسة لمن يحذرها من خطر مثل هذه الشهوات والأهواء، ويرشدها لطرق الزهد والورع المشروعة في الدنيا، وينبهها للعبادة المشروعة والتقوى وتزكية النفس والسمو بها وترك المحرمات وفعل المأمورات ويوصيها بما فيه صلاح الدين والدنيا، ولا شك أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد تحدث في هذه الأمور وغيرها حديث العالم المتبحر الذي ينهل من معين الثقافة الإسلامية الواسعة الذي لا ينضب، وعلى هذا الأساس اخترنا بعض الفصول والرسائل التي تحدث فيها الإمام ابن تيمية عن الزهد والورع والعبادة ونحو ذلك في مجلد السلوك من مجموع الفتاوى وقمنا بخدمتها كما يلي:

١ ــ الترجمة المختصرة لابن تيمية.

٢ ــ تخريج الآيات القرآنية الكريمة.

٣ ـ تخريج الأحاديث الشريفة تخريجاً وسطاً فلا هو طويل ممل ولا قصير مخل.

٤ ـ الترجمة لبعض الأعلام الذين ورد ذكرهم.

٥ ـ شرح المفردات الغريبة.

٦ ـ وضع عناوين داخلية للموضوعات.

٧ ـ وضع فهارس للآيات والأحاديث والموضوعات.

ونسأل الله أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يُنتفع به وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حمّاد سلامة

ترجمة ابن تيمية

هو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم . الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس تقي الدين ابن تيمية: الإمام شيخ الإسلام، ولد في حران سنة ٦٦١هـ وتحوَّل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها فقصدها فتحامل عليه جماعة من أهلها فسجن مدة ونُقل إلى الإسكندرية ثم أطلق سراحه، فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ واعتقل بها سنة ٧٢٠هـ وأطلق ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان كثير البحث في فنون الحكمة داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، له مصنفات كثيرة وقد جمعها تلميذه ابن القيم في رسالة له طبعها الدكتور صلاح الدين المنجد، وقد تقدمت له ترجمة وافية في الرسالة التي نشرناها له بعنوان «التحفة العراقية في الأمراض القلبية»[1].

---

(١) [انظر ترجمته في البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٧، الشذرات ج ٦ ص ٨١، فوات الوفيات ج ١ ص ٧٤، طبقات الحفاظ ص ٥٢٠، والعبر للذهبي ج ٤ ص ٨٤، الأعلام ج ١ ص ١٤٤، وله ترجمة مستفيضة في المطولات].

الفَصْل الأوَّل

[الصراط المستقيم في الزهد والعبادة والورع]

قالَ الشيخ، رَحِمَهُ الله:

[أهمية لزوم السنة:]

فصل: في الصراط المستقيم: في «الزهد» و«العبادة» و«الورع» في ترك المحرمات والشهوات، و«الاقتصاد» في العبادة. وأن لزوم السنة هو يحفظ من شر النفس والشيطان بدون الطرق المبتدعة، فإن أصحابها لا بد أن يقعوا في الآصار والأغلال، وإن كانوا متأولين، فلا بد لهم من اتباع الهوى؛ ولهذا سمي أصحاب البدع أصحاب الأهواء؛ فإن طريق السنة علم وعدل وهدى؛ وفي البدعة جهل وظلم، وفيها اتباع الظن وما تهوى الأنفس.

[معنى الضلال والغي والرشد:]

و «الرسول» ما ضل وما غوى، و«الضلال» مقرون بالغي؛ فكل غاو ضال؛ والرشد ضد الغي والهدى ضد الضلال، وهو مجانبة طريق الفجار وأهل البدع، كما كان السلف ينهون عنهما. قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾[1].

---

(١) الآية ٥٩ من سورة مريم.

و «الغي» في الأصل: مصدر غوى يغوي غياً؛ كما يقال: لوى يلوي لياً. وهو ضد الرشد كما قال تعالى: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾[1].

و «الرشد» العمل الذي ينفع صاحبه، والغي العمل الذي يضر صاحبه، فعمل الخير رشد. وعمل الشر غي؛ ولهذا قالت الجن: ﴿وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً؟!﴾[2]، فقابلوا بين الشر وبين الرشد، وقال في آخر السورة: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾[3] ومنه «الرشيد» الذي يسلم إليه ماله. وهو الذي يصرف ماله فيما ينفع لا فيما يضر.

وقال الشيطان: ﴿ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[4] وهو أن يأمرهم بالشر الذي يضرهم فيطيعونه كما قال تعالى: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾[5]، وقال: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾[6]، إلى أن قال: ﴿فكبكبوا[7] فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون﴾[8]، وقال: ﴿قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾[9]، وقال: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾[10]

---

(١) الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ١٠ من سورة الجن.
(٣) الآية ٢١ من سورة الجن.
(٤) الآيتان ٣٩ ــ ٤٠ من سورة الحجر.
(٥) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.
(٦) الآية ٩١ من سورة الشعراء.
(٧) كبكبوا: أي دهوروا وجمعوا ثم رمي بهم في هوَّة النار. [انظر لسان العرب، ج ١ ص ٦٩٧، طبعة دار صادر].
(٨) الآيتان ٩٤ ــ ٩٥ من سورة الشعراء.
(٩) الآية ٦٣ من سورة القصص.
(١٠) الآية ٢ من سورة النجم.

ثم إن «الغي» إذا كان اسماً لعمل الشر الذي يضر صاحبه فإن عاقبة العمل أيضاً تسمى غياً، كما إن عاقبة الخير تسمى رشداً، كما تسمى عاقبة الشر شراً، وعاقبة الخير خيراً، وعاقبة الحسنات حسنات، وعاقبة السيئات سيئات.

«فالحسنات والسيئات» في كتاب الله يراد بها أعمال الخير وأعمال الشر، كما يراد بها النعم والمصائب والجزاء من جنس العمل، فمن عمل خيراً وحسنات لقي خيراً وحسنات، ومن عمل شراً وسيئات لقي شراً وسيئات. كذلك من عمل غياً لقي غياً، وترك الصلاة واتباع الشهوات غي يلقى صاحبه غياً. فلهذا قال الزمخشري: كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد. كما قيل:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً[1]

وقال الزجاج: جزاؤه غي؛ لقوله: ﴿يلق أثاماً﴾، أي مجازاة آثام. وفي الحديث المأثور: «إن غيا واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها»[2]، وهذا تعبير عن ملاقاة الشر، وقال سبحانه: ﴿أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾[3]، فإن الصلاة فيها إرادة وجه الله. كما قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[4]: أي يصلون صلاة الفجر والعصر. والداعي يقصد ربه ويريده، فتكون القلوب في هذه الأشياء مريدة لربها محبة له.

---

(١) قائل البيت المرقش الأصغر. انظر المفضليات، للضبي، ص ٢٤٧.
(٢) رواه الطبري في تفسيره، ج ٩ ص ١٠٠.
(٣) الآية ٥٩ من سورة مريم.
(٤) الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

[اتبـــاع الشهـــوات:]

و ﴿اتباع الشهوات﴾ هو اتباع ما تشتهيه النفس؛ فإن «الشهوات جمع شهوة، والشهوة هي في الأصل: مصدر، ويسمى المشتهى شهوة. تسمية للمفعول باسم المصدر. قال تعالى: ﴿ويـريـد الـذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلًا عـظيماً﴾[1]، فجعـل التوبـة في مقابلة اتبـاع الشهوات، فإنه يريد أن يتوب علينا: أي فالله يحب لنا ذلك ويرضاه ويأمر به، ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ وهـم الغاوون ﴿أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ يعدل بكم عن الصراط المستقيم إلى اتباع الشهوات عدولاً عظيماً، فإن أصل «الميل» العدول، فلا بد منه للذين يتبعون الشهوات، كما قال صلى الله عليه وسلم: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[2]. رواه أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان.

فأخبر أنا لا نطيق الاستقامة أو ثوابها إذا استقمنا. وقال: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾[3]، فقوله: «كل الميل»، أي يريد نهاية الميل، يريد الزيغ عن الطريق، والعدول عن سواء الصراط إلى نهاية الشر؛ بل إذا بليت بذلك فتوسط، وعد إلى الطريق بالتوبة.

كما في الحديث عن النبـي صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن كمثل

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النساء.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٨٢؛ ومالك في الطهارة، باب جامع الوضوء، ج ١ ص ٣٤. ورواه ابن ماجه في كتاب الطهارة، باب المحافظة على الوضوء، ج ١ ص ١٠١/١٠٢. قـال في الزوائد: رجال إسناده ثقات أثبات. إلا أن فيه انقطاعاً بين سالم وثوبان. ولكن أخرجه الدارمي وابن حبان في صحيحه من طريق ثوبان متصلاً.

(٣) الآية ١٢٩ من سورة النساء.

الفرس في آخِيَّته يجول ثم يرجع إلى آخِيَّته. كذلك المؤمن يجول ثم يرجع إلى ربه»[1]، قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين﴾[2]، إلى قوله: ﴿ونعم أجر العاملين﴾[3]، فلم يقل لا يظلمون ولا يذنبون، بل قال: ﴿إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾[4]، أي بذنب آخر غير الفاحشة؛ فعطف العام على الخاص. كما قال موسى: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾[5]، وقالت بلقيس: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾[6]، وقال تعالى عموماً عن أهل القرى المهلكة: ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾[7]، فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه؛ وبعصيانهم لأنبيائهم؛ وبتركهم التوبة إلى ربهم.

وقوله تعالى: ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾[8] ولهذا قال: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾[9]، ثم قال: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[10] . قال مجاهد وغيره: يتبعون الشهوات الزنا. وقال

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣ ص ٣٨ مع اختلاف يسير في اللفظ.
ورواه ابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، ج ٢ ص ٣٢٥، تحقيق شعيب الأرناؤوط. ورواه أبو يعلى، انظر مجمع الزوائد، ج ١٠ ص ٢٠١. قال الهيثمي عن رواية أحمد وأبي يعلى: ورجالهما رجال الصحيح غير أبي سليمان الليثي وعبدالله بن الوليد التميمي وكلاهما ثقة. ومعنى الحديث أنه يبعد عن ربه بالذنوب وأصل إيمانه ثابت (لسان العرب، ج ١٤ ص ٢٣).

(٢) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ١٣٦ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ١٦ من سورة القصص.

(٦) الآية ٤٤ من سورة النمل.

(٧) الآية ١٠١ من سورة هود.

(٨) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

(٩) الآية ٢٧ من سورة النساء.

(١٠) الآية ٢٨ من سورة النساء.

ابن زيد: هم أهل الباطل. وقال السدي: هم اليهود والنصارى والجميع حق؛ فإنهم قد يتبعون الشهوات مع الكفر، وقد يكون مع الاعتراف بأنها معصية.

ثم ذكر أنه «خلق الإنسان ضعيفاً» وسياق الكلام يدل على أنه ضعيف عن ترك الشهوات، فلا بد له من شهوة مباحة يستغني بها عن المحرمة؛ ولهذا قال طاووس ومقاتل: ضعيف في قلة الصبر عن النساء، وقال الزجاج وابن كيسان: ضعيف العزم عن قهر الهوى. وقيل: ضعيف في أصل الخلقة؛ لأنه خلق من ماء مهين، يروى ذلك عن الحسن، لكن لا بد أن يوجد مع ذلك أنه ضعيف عن الصبر ليناسب ما ذكر في الآية، فإنه قال: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾[1] وهو تسهيل التكليف بأن يبيح لكم ما تحتاجون إليه ولا تصبروا عنه. كما أباح نكاح الفتيات؛ وقد قال قبل ذلك: ﴿لمن خشي العنت منكم. وأن تصبروا خير لكم. والله غفور رحيم﴾[2].

فهو سبحانه مع إباحته نكاح الإماء عند عدم الطول وخشية العنت قال: ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ فدل ذلك على أنه يمكن الصبر مع خشية العنت وأنه ليس النكاح كإباحة الميتة عند المخمصة[3]، فإن ذلك لا يمكن الصبر عنه.

[حكم الاستمناء:]

وكذلك من أباح «الاستمناء» عند الضرورة فالصبر عن الاستمناء أفضل. فقد روي عن ابن عباس: أن نكاح الإماء خير منه، وهو خير من

(١) الآية ٢٨ من سورة النساء.

(٢) الآية ٢٥ من سورة النساء.

(٣) المخمصة: المجاعة [انظر مختار الصحاح، ص ١٩٠].

الزنا، فإذا كان الصبر عن نكاح الإماء أفضل فعن الاستمناء بطريق الأولى أفضل.

لا سيما وكثير من العلماء أو أكثرهم يجزمون بتحريمه مطلقاً، وهو أحد الأقوال في مذهب أحمد. واختاره ابن عقيل في المفردات والمشهور عنه ـ يعني عن أحمد ـ أنه محرم إلا إذا خشي العنت. والثالث أنه مكروه إلا إذا خشي العنت. فإذا كان الله قد قال في نكاح الإماء: ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾[1] ففيه أولى. وذلك يدل على أن الصبر عن كلاهما ممكن.

فإذا كان قد أباح ما يمكن الصبر عنه، فذلك لتسهيل التكليف كما قال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[2].

و «الاستمناء» لا يباح عند أكثر العلماء سلفاً وخلفاً سواء خشي العنت أو لم يخش ذلك. وكلام ابن عباس وما روي عن أحمد فيه إنما هو لمن خشي «العنت»، وهو الزنا واللواط، خشية شديدة خاف على نفسه من الوقوع في ذلك فأبيح له ذلك لتكسير شدة عنته وشهوته.

وأما من فعل ذلك تلذذاً أو تذكراً أو عادة: بأن يتذكر في حال استمنائه صورة كأنه يجامعها، فهذا كله محرم لا يقول به أحمد ولا غيره وقد أوجب فيه بعضهم الحد والصبر عن هذا من [الواجبات لا من] المستحبات.

[وجوب الصبر عن المحرمات:]

وأما الصبر عن المحرمات فواجب، وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها. قال تعالى: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾[3] و«الاستعفاف» هو ترك المنهي عنه. كما في الحديث

---

(١) الآية ٢٥ من سورة النساء.

(٢) الآية ٢٨ من سورة النساء.

(٣) الآية ٣٣ من سورة النور.

الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[1].

«فالمستغني» لا يستشرف بقلبه، و«المستعف» هو الذي لا يسأل الناس بلسانه، و«المتصبر» هو الذي لا يتكلف الصبر. فأخبر أنه من يتصبر يصبره الله. وهذا كأنه في سياق الصبر على الفاقة، بأن يصبر على مرارة الحاجة، لا يجزع مما ابتلي به من الفقر، وهو الصبر في البأساء والضراء. قال تعالى: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾[2].

[الصبر على البلاء:]

و «الضراء» المرض. وهو الصبر على ما ابتلي به من حاجة ومرض وخوف. والصبر على ما ابتلي به باختياره كالجهاد؛ فإن الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذي يبتلى به بغير اختياره؛ ولذلك إذا ابتلي بالعنت في الجهاد فالصبر على ذلك أفضل من الصبر عليه في بلده؛ لأن هذا الصبر من تمام الجهاد. وكذلك لو ابتلي في الجهاد بفاقة أو مرض حصل بسببه كان الصبر عليه أفضل. كما قد بسط هذا في مواضع.

---

(١) الحديث: رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، ج ١١ ص ٣٠٣ بهامش الفتح. ورواه مسلم في كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، ج ٢ ص ٧٢٩. ورواه أبو داود في الزكاة، باب في الاستعفاف، ج ٢ ص ٢٩٥. ورواه الترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الصبر، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ج ٣ ص ٢٥٢. ورواه الدارمي في كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف عن المسألة، ج ١ ص ٣٨٧/٣٨٨. ورواه مالك في الموطأ، في كتاب الصدقة، باب ما جاء في التعفف عن المسألة، ج ٢ ص ٩٩٧. ورواه أحمد في مسنده، ج ٣ ص ٩٣.

(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

[الصبر على الطاعات:]

وكذلك ما يؤذى الإنسان به في فعله للطاعات كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب العلم من المصائب، فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتلي به بدون ذلك، وكذلك إذا دعته نفسه إلى محرمات: من رئاسة، وأخذ مال، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ما هو دون ذلك؛ فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما.

فإن في «العلم» و«الامارة» و«الجهاد» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و«الصلاة» و«الحج» و«الصوم» و«الزكاة» من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها. ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور. فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه، كما تطمع مع القدرة؛ فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة؛ بخلاف حالها بدون القدرة فإن الصبر مع القدرة جهاد؛ بل هو من أفضل الجهاد. وأكمل من ثلاثة أوجه:

(أحدها): أن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب.

(الثاني): أن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك.

(الثالث): أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني ــ كمن خرج لصلاة أو طلب علم أو جهاد فابتلي بما يميل إليه من ذلك فإن صبره عن ذلك ــ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور؛ بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح؛ ولهذا كان يونس بن عبيد[1] يوصي بثلاث

---

(١) هو يونس بن عبيد بن دينار العبدي، مولاهم أبو عبيد البصري. قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، وقال أحمد وابن معين والنسائي: ثقة، كان من أهل البصرة يبيع بها الخز، مات سنة أربعين ومائة [انظر تهذيب التهذيب، ج ١١ ص ٤٤٢؛ وصفة الصفوة، ج ٣ ص ٣٠١؛ والأعلام، ج ٨ ص ٢٦٢].

يقول: لا تدخل على سلطان، وإن قلت: آمره بطاعة الله. ولا تدخل على امرأة، وإن قلت: أعلمها كتاب الله. ولا تصغ أذنك إلى صاحب بدعة، وإن قلت: أرد عليه.

فأمره بالاحتراز من «أسباب الفتنة»، فإن الإنسان إذا تعرض لذلك فقد يفتتن ولا يسلم.

فإذا قدر أنه ابتلي بذلك بغير اختياره أو دخل فيه باختياره وابتلي، فعليه أن يتقي الله ويصبر ويخلص ويجاهد. وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب من أفضل الأعمال، كمن تولى ولاية وعدل فيها، أو رد على أصحاب البدع بالسنة المحضة ولم يفتنوه، أو علم النساء الدين على الوجه المشروع من غير فتنة.

[الابتـــلاء:]

لكن الله إذا ابتلى العبد وقدر عليه أعانه، وإذا تعرض العبد بنفسه إلى البلاء وكله الله إلى نفسه. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»[1] وكذلك قال في الطاعون: «إذا وقع ببلد وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به

---

(١) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها، ج ١٣ ص ١٢٣/١٢٤؛ ومسلم في كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، ج ٣ ص ١٤٥٦؛ وأبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في طلب الإمارة، ج ٣ ص ٣٤٣؛ والترمذي في كتاب النذور، باب فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، ج ٣ ص ٤٢، وقال: «حديث حسن صحيح»؛ والنسائي في كتاب آداب القضاة، باب النهي عن مسألة الإمارة، ج ٨ ص ٢٢٥؛ والدارمي في كتاب النذور والأيمان، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، ج ٢ ص ٨٦؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٦٢.

بأرض فلا تقدموا عليه»[1]، فمن فعل ما أمره الله به فعرضت له فتنة من غير اختياره فإن الله يعينه عليها بخلاف من تعرض لها.

[التوبـــة:]

لكن باب التوبة مفتوح؛ فإن الرجل قد يسأل الإمارة فيوكل إليها، ثم يندم فيتوب من سؤاله فيتوب الله عليه ويعينه؛ إما على إقامة الواجب، وإما على الخلاص منها؛ وكذلك سائر الفتن. كما قال: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[2]، وهذه الأمور تحتاج إلى بسط لا يتسع له هذا الموضع.

[الهدايـــة:]

و (المقصود) أن الله سبحانه يريد أن يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا الذين قال فيهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[3]، وهم الذين أمرنا أن نسأله الهداية لسبيلهم في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾[4]، فهو يحب لنا ويأمرنا أن نتبع صراط هؤلاء، وهو سبيل من أناب إليه، فذكر هنا ثلاثة أمور: البيان، والهداية، والتوبة.

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، ج ٦ ص ٥١٣ مع اختلاف يسير في اللفظ، ومسلم في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، ج ٤ ص ١٧٣٨/١٧٣٧؛ وأبو داود في كتاب الجنائز، باب الخروج من الطاعون، ج ٣ ص ٤٧٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٠٨.

(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

(٤) الآيتان ٦ ـ ٧ من سورة الفاتحة.

[المراد بالسنن:]

وقيل: المراد بالسنن هنا سنن أهل الحق والباطل، أي: يريد أن يبين لنا سنن هؤلاء وهؤلاء فيهدي عباده المؤمنـين إلى الحق، ويضل آخرين، فإن الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان. كما قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾[1]، وقال: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾[2].

فتكون (سنن) متعلقاً بيبين يعني سنن أهل الباطل لا بيهدي، وأهل الحق متعلق بقوله: ويهديكم. وقال الزجاج[3]: السنن الطرق، فالمعنى يدلكم على طاعته، كما دل الأنبياء وتابعيهم، وهذا أولى؛ لأنه قد يقدم فعلين فلا يجعل الأول هو العامل وحده، بل العامل إما الثاني وحده، وإما الاثنان، كقوله: ﴿آتوني أفرغ عليه قطراً﴾[4].

أو إذا أريد هذا التقدير: يبين لكم سنن الذين من قبلكم ويهديكم سنناً. فدل على أنه يهدينا سننهم. والمراد بذلك سنن أهل الحق، بخلاف قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾[5]، فإنه قال بعدها: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[6]، فإنه أراد تعريف عقوبة

---

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ١١٥ من سورة التوبة.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزَّجّاج النحوي، كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين. توفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة سنة عشر ــ وقيل سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة ست عشرة وثلثمائة ببغداد رحمه الله تعالى وقد أناف على ثمانين سنة. [وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج ١ ص ٥١].

(٤) الآية ٩٦ من سورة الكهف.

(٥) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران.

(٦) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران.

الظالمين بالعيان، وهنا فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا، وهم الذين أنعم الله عليهم. وذكر ثلاثة أمور:

«التبيين» و«الهدى» و«التوبة»؛ لأن الإنسان أولاً يحتاج إلى معرفة الخير والشر وما أُمر به وما نهي عنه، ثم يحتاج بعد ذلك إلى أن يهدي فيقصد الحق ويعمل به دون الباطل. وهو سنن الأنبياء والصالحين. ثم لا بد له بعد ذلك من الذنوب فيريد أن يتطهر منها بالتوبة فهو محتاج إلى العلم والعمل به، وإلى التوبة مع ذلك، فلا بد له من التقصير أو الغفلة في سلوك تلك السنن التي هداه الله إليها، فيتوب منها بما وقع من تفريط في كل سنة من تلك السنن، وهذه «السنن» تدخل فيها الواجبات والمستحبات، فلا بد للسالك فيها من تقصير وغفلة فيستغفر الله ويتوب إليه. فإن العبد لو اجتهد مهما اجتهد لا يستطيع أن يقوم لله بالحق الذي أوجبه عليه، فما يسعه إلا الاستغفار والتوبة عقيب كل طاعة.

[تفسير الهداية:]

وقد يقال: «الهداية» هنا البيان والتعريف، أي: يعرفكم سنن الذين من قبلكم من أهل السعادة والشقاوة لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه، كما قال تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾[1]، قال علي وابن مسعود: سبيل الخير والشر. وعن ابن عباس: سبيل الهدى والضلال. وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة، أي فطرناه على ذلك، وعرفناه إياه، والجميع واحد. والنجدان الطريقان الواضحان، والنجد المرتفع من الأرض، فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطريقين العاليين؛ لكن الهدى والتبيين والتعريف في هذه الآية يشترك فيه بنو آدم، ويعرفونه بعقولهم.

وأما طريق من تقدم من الأنبياء فلا بد من إخبار الله تعالى عنها كما

---

(١) الآية ١٠ من سورة البلد.

قال: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنتَ ولا قومك من قبل هذا﴾[1]، لكن يجاب عن هذا بأنه لو أريد هذا المعنى لقال يريد الله ليبين لكم سنن الذين من قبلكم، ولم يحتج أن يذكر الهدى إذا كان المعنى واحداً، فلما ذكر أنه يريد التبيين والهدى علم أن هذا غير هذا، فـ «التبيين» التعريف والتعليم، و «الهدى» هو الأمر والنهي، وهو الدعاء إلى الخير. كما قال تعالى: ﴿ولكل قوم هاد﴾[2]، أي داع يدعوهم إلى الخير. كما قال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[3]، أي تدعوهم إليه دعاء تعليم.

[الإرادة الشرعية والإرادة الكونية:]

وهداه هنا [يتعدى] بنفسه؛ لأن التقدير: ويلزمكم سنن الذين من قبلكم فلا تعدلوا عنها، وليس المراد هنا بالهدى الإلهام. كما في قوله ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[4]، لكونه لو أراد ذلك لوقع، ولم يكن فينا ضال، بل هذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا، ولهذا قال الزجاج: يريد أن يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم، فعلق الإرادة بفعل نفسه. فإن الزجاج ظن الإرادة في القرآن ليست إلا كذلك، وليس كما ظن، بل الإرادة المتعلقة بفعله يكون مرادها كذلك، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأما الإرادة الموجودة في أمره وشرعه فهو كقوله: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم﴾[5] الآية. وقوله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾[6] ونحو ذلك.

---

(١) الآية ٤٩ من سورة هود.
(٢) الآية ٧ من سورة الرعد.
(٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى.
(٤) الآية ٦ من سورة الفاتحة.
(٥) الآية ٦ من سورة المائدة.
(٦) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.

فهذه إرادته لما أمر به، بمعنى أنه يحبه ويرضاه، ويثيب فاعله؛ لا بمعنى أنه أراد أن يخلقه فيكون كما قال: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[1] الآية.

وكما قال نوح: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾[2].

فهذه إرادة لما يخلقه ويكونه. كما يقول المسلمون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة متعلقة بكل حادث، والإرادة الشرعية الأمرية لا تتعلق إلا بالطاعات كما يقول الناس لمن يفعل القبيح: يفعل شيئاً ما يريده الله، مع قولهم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فإن هذه الإرادة «نوعان»، كما قد بسط في موضع آخر.

وقد يراد بالهدى الإلهام، ويكون الخطاب للمؤمنين المطيعين الذين هداهم الله إلى طاعته، فإن الله تعالى أراد أن يتوب عليهم ويهديهم، فاهتدوا، ولولا إرادته لهم ذلك لم يهتدوا، كما قالوا: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾[3].

لكن الخطاب في الآية لجميع المسلمين، كالخطاب بآية الوضوء. والخطاب لأهل البيت بقوله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾[4]، ولهذا يهدد من لم يطعه. وكما في الصيام: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[5]. فهذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا؛ لا إرادة

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٣٤ من سورة هود.
(٣) الآية ٤٣ من سورة الأعراف.
(٤) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.
(٥) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

الخلق المستلزمة للمراد؛ لأنه لو كان كذلك لم تكن الآية خطاباً إلا لمن أخذ باليسر، ولمن فعل ما أمر به، وليس كذلك. بل الحكم الشرعي لازم لجميع المسلمين؛ فمن أطاع أثيب ومن عصى عوقب، والذين أطاعوه إنما أطاعوه بهداه لهم: هدى الإلهام، والإعانة بأن جعلهم مهتدين، كما أنه هو الذي جعل المصلي مصلياً، والمسلم مسلماً.

ولو كانت الإرادة هنا من الإنسان مستلزمة لوقوع المراد لم يقل: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾[1] فإنه حينئذ لا تأثير لإرادة هؤلاء، بل وجودها وعدمها سواء. كما في قول نوح: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾[2]، فإن ما شاء الله كان وإن لم يشاء الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس.

[اتّباع الشهوات والأهواء:]

والمقصود بالآية تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات. والمعنى: إني أريد لكم الخير الذي ينفعكم، وهؤلاء يريدون لكم الشر الذي يضركم، كالشيطان الذي يريد أن يغويكم، وأتباعه هم أهل الشهوات فلا تتخذوه وذريته أولياء من دوني، بل اسلكوا طرق الهدى والرشاد، وإياكم وطرق الغي والفساد. كما قال تعالى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[3] الآيات. وقوله: ﴿يتبعون الشهوات﴾[4] في الموضعين. فاتباع الشهوة من جنس اتّباع الهوى، كما قال تعالى: ﴿إنما

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النساء.
(٢) الآية ٣٤ من سورة هود.
(٣) الآية ١٢٣ من سورة طه.
(٤) الآية ٢٧ من سورة النساء.

يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[1]، وقال: ﴿ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[5] وهذا في القرآن كثير.

و «الهوى» مصدر هوى يهوى هوى، ونفس المهوي يسمى هوى ما يهوى، فاتّباعه كاتّباع السبيل. كما قال تعالى: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾، وكما في لفظ الشهوة، فاتّباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر، أي اتباع إرادته ومحبته التي هي هواه واتّباع الإرادة هو فعل ما تهواه النفس. كقوله تعالى: ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾[6]، وقوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[7]، وقال: ﴿[8]ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾[9]، فلفظ الاتباع يكون للآمر الناهي، وللأمر والنهي، وللمأمور به والمنهي عنه، وهو الصراط المستقيم.

كذلك يكون للهوى أمر ونهي؛ وهو أمر النفس ونهيها. كما قال

---

(١) الآية ٥٠ من سورة القصص.
(٢) الآية ٧١ من سورة المؤمنون.
(٣) الآية ٧٧ من سورة المائدة.
(٤) الآية ١٤ من سورة محمد.
(٥) الآية ١٨ من سورة الجاثية.
(٦) الآية ١٥ من سورة لقمان.
(٧) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.
(٨) الآية ٣ من سورة الأعراف.
(٩) فالأول يكون للإنسان والثاني للقول والثالث للفعل (من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٥٨٥).

تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾[1]، ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر فاتّباع الأمر هو فعل المأمور، واتّباع أمر النفس هو فعل ما تهواه فعلى هذا يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه.

بل قد يقال: هذا هو الذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء؛ لأن الذي يشتهي ويهوى إنما يصير موجوداً بعد أن يشتهي ويهوى، وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهى ويهوى عند وجوده، فهو حينئذ قد فعل؛ ولا ينهى عنه بعد وجوده، ولا يقال لصاحبه: لا تتبع هواك.

وأيضاً فالفعل المراد المشتهى الذي يهواه الإنسان هو تابع لشهوته وهواه، فليست الشهوة والهوى تابعة له: فاتّباع الشهوات هو اتباع شهوة النفس. وإذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الأصل يحتاج إلى أن يجعل في الخارج ما يشتهى. والإنسان يتبعه كالمرأة المطلوبة، أو الطعام المطلوب، وإن سميت المرأة شهوة والطعام أيضاً كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي»[2]، أي بترك شهوته؛ وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام؛ لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في

---

(١) الآية ٥٣ من سورة يوسف.

(٢) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ج ١٣ ص ٤٦٤ مع اختلاف في اللفظ؛ ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ج ٢ ص ٨٠٧؛ والنسائي في كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ج ٤ ص ١٦٣؛ وابن ماجه في كتاب الصيام، باب ما جاء في فضل الصيام، ج ١ ص ٥٢٥؛ ومالك في الموطأ، في كتاب الصيام، باب جامع الصيام، ج ١ ص ٣١٠ مع اختلاف في اللفظ؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٥٧.

نفسه، فإن تلك مخلوقة فيه مجبول عليها؛ وإنما يثاب إذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة.

و «حقيقة الأمر» أنهما متلازمان: فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه؛ وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه، فإن ذلك من آثار الإرادة، واتباع الإرادة هو امتثال أمرها، وفعل ما تطلبه، كالمأمور الذي يتبع أمر أميره؛ ولا بد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله. فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان؛ وفعله في الظاهر تبع لاتباع الباطن، فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى التي في النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له.

ولهذا يقال: العلة الغائية علة فاعلية، فإن الإنسان للعلة الغائية ـ بهذا التصور والإرادة ـ صار فاعلاً للفعل، وهذه الصورة المرادة المتصورة في النفس هي التي جعلت الفاعل فاعلاً، فيكون الإنسان متبعاً لها، والشيطان يمده في الغي، فهو يقوي تلك الصورة ويقوي أثرها ويزين للناس اتباعها، وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة ـ كالمحبوب من الصور والطعام والشراب ـ وتتناول نفس الفعل الذي هو المباشرة لذلك المطلوب المحبوب، والشيطان والنفس تحب ذلك، وكلما تصور ذلك المحبوب في نفسه أراد وجوده في الخارج، فإن أول الفكر آخر العمل، وأول البغية آخر الدرك.

ولهذا يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيراً لذلك، مقهوراً تحت سلطان الهوى، أعظم من قهر كل قاهر، فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه، لا يمكنه مفارقته البتة والصورة الذهنية تطلبها النفس، فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه، وتمثله لها في نفسها فهو متبع للإرادة. وإن كانت الذهنية والتزين من الزين والمراد التصور في نفسه. والمشتهى الموجود في الخارج له «محركان» التصور والمشتهى هذا

يحركه تحريك طلب وأمر، وهذا يأمره أن يتبع طلبه وأمره، فاتّباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله؛ بخلاف كل قاهر ينفصل عن الإنسان فإنه يمكنه مفارقته مع بقاء نفسه على حالها، وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه.

ولهذا قال النبـي صلى الله عليه وسلم: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنا، وكلمة الحق في الغضب والرضا»[1].

وقوله في الحديث: «هوى متبع». فيه دليل على أن المتبع هو ما قام في النفس. كقوله: في الشح المطاع، وجعل الشح مطاعاً، لأنه هو الآمر، وجعل الهوى متبعاً؛ لأن المتبع قد يكون إماماً يقتدى به ولا يكون آمراً. وفي الصحيحين عن النبـي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[2]. فبين أن الشح يأمر بالبخل والظلم والقطيعة. «فالبخل» منع منفعة الناس بنفسه وماله، و«الظلم» هو الاعتداء عليهم.

فالأول هو التفريط فيما يجب فيكون قد فرط فيما يجب، واعتدى عليهم بفعل ما يحرم وخص قطيعة الرحم بالذكر إعظاماً لها؛ لأنها تدخل في الأمرين المتقدمين قبلها.

---

(١) رواه أبو الشيخ في التوبيخ والطبراني في الأوسط ورمز له السيوطي بالضعف. انظر: الجامع الصغير، ج ١ ص ١٣٨. قال المناوي في فيض القدير، ج ٣ ص ٣٠٧: قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الزكاة، باب في الشح، ج ٢ ص ٣٢٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ١٥٩/ ١٦٠ ولم أجده في البخاري أو مسلم بهذا اللفظ. قال الساعاتي في الفتح الرباني، ج ١٩ ص ٢١٦: وسنده صحيح.

[تفسير البخل والشح والحسد:]

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾[1]، هو أن لا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه «فالشح» يأمر بخلاف أمر الله ورسوله، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان.

وقد كان عبدالرحمن بن عوف يكثر في طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة أن يقول: اللهم قني شح نفسي، فسئل عن ذلك فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة. وفي رواية عنه قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت قال: وما ذاك؟ قال: اسمع الله يقول: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله في القرآن إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً وإنما يكن بالبخل وبئس الشيء البخل.

وقد ذكر تعالى «الشح» في سياق ذكر الحسد والإيثار في قوله: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[2] ـ ثم قال ـ: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[3]، فمن وقى شح نفسه لم يكن حسوداً باغياً على المحسود، و «الحسد» أصله بغض المحسود.

و «الشح» يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة في المال وبغض للغير وظلم له، كما قال تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا! ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحة عليكم﴾ الآيات ـ

(١) الآية ٩ من سورة الحشر.
(٢) الآية ٩ من سورة الحشر.
(٣) الآية ٩ من سورة الحشر.

إلى قوله: ﴿أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾[1]، فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه، وبغض الخير يأمر بالشر وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعته كالحسد؛ فإن الحاسد يأمر حاسده بظلم المحسود وقطيعته، كابني آدم وإخوة يوسف.

فـ «الحسد والشح» يتضمنان بغضاً وكراهية فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص، فإن الفعل صدر فيه عن بغض، بخلاف الهوى فإن الفعل صدر فيه عن حب أحب شيئاً فأتبعه ففعله، وذلك مقصوده أمر عدمي والعدم لا ينفع. ولكن ذاك القصد أمر بأمر وجودي، فأطيع أمره.

وابن مسعود جعل البخل خارجاً عن الشح والنبي صلى الله عليه وسلم جعل الشح يأمر بالبخل[2].

ومن الناس من يقول: «الشح، والبخل» سواء. كما قال ابن جرير: الشح في كلام العرب هو البخل ومنع الفضل من المال. وليس كما قال، بل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وابن مسعود أحق أن يتبع: فإن «البخيل» قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم وقد لا يكون متلذذاً به ولا متنعماً، بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك حتى يكون يكره أن ينفع نفسه منه مع كثره ماله، وهذا قد يكون مع التذاذه بجمع المال ومحبته لرؤيته، وقد لا يكون هناك لذة أصلاً؛ بل يكره أن يفعل إحساناً إلى أحد حتى لو أراد غيره أن يعطي كره ذلك منه بغضاً للخير لا للمعطي ولا للمعطي، بل بغضاً منه للخير وقد يكون بغضاً وحسداً للمعطى أو للمعطى وهذا هو «الشح» وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعاً، ولكن كل بخل يكون عن شح. فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحاً.

---

(١) الآيتان ١٨ ـ ١٩ من سورة الأحزاب.

(٢) إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: «أمرهم بالبخل فبخلوا».

قال الخطابي[1]: «الشح» أبلغ في المنع من البخل، والبخل إنما هو من أفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح عام فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجبلة..

وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: «البخل» أن يضن الإنسان بماله و«الشح» أن يضن بماله ومعروفه، وقيل: «الشح» أن يشح بمعروف غيره على غيره و«البخل» أن يبخل بمعروفه على غيره والذين يتبعون الشهوات ويتبعون أهواءهم يحبون ذلك ويريدونه فاتبعوا محبتهم وإرادتهم من غير علم، فلم ينظروا هل ذلك نافع لهم في العاقبة أو ضار.

[درجات اتباع الهوى:]

ولهذا قال: ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾، ثم قال: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[2]، و«اتباع الهوى» درجات: فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون الله ما يستحسنون بلا علم، ولا برهان، كما قال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[3]: أي يتخذ إلهه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة، ولم يقل إن هواه نفس إلهه فليس كل من يهوى شيئاً يعبده، فإن الهوى أقسام، بل المراد أنه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه في العبادة فإنه لم يعبد ما يحب أن يعبد، ولا عبد العبادة التي أمر بها.

وهذه حال «أهل البدع» فإنهم عبدوا غير الله، وابتدعوا عبادات

---

(١) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البُستي، صاحب التصانيف.. كان ثقة متثبتاً من أوعية العلم، مات ببُست في ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة (طبقات الحفاظ، ص ٤٠٤/٤٠٥).

(٢) الآية ٥٠ من سورة القصص.

(٣) الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

زعموا أنهم يعبدون الله بها، فهم إنما اتبعوا أهواءهم، فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها وهواها من غير علم، ولا هدى ولا كتاب منير.

فلو اتبع العلم والكتاب المنير لم يعبد إلا الله بما شاء، لا بالحوادث والبدع.

و (المقصود) أن الآلهة كثيرة، والعبادات لها متنوعة، وبالجملة فكل ما يريده الإنسان ويحبه لا بد أن يتصوره في نفسه، فتلك الصورة العلمية محركة له إلى محبوبه ولوازم الحب، فمن عبده عبد غير الله وتمثلت له الشياطين في صورة من يعبده، وهذا كثير ما زال ولم يزل، ولهذا كان كل من عبد شيئاً غير الله فإنما يعبد الشيطان، ولهذا يقارن الشيطان الشمس عند طلوعها وغروبها واستوائها ليكون سجود من يعبدها له.

وقد كانت «الشياطين» تتمثل في صورة من يعبد، كما كانت تكلمهم من الأصنام التي يعبدونها، وكذلك في وقتنا خلق كثير من المنتسبين إلى الإسلام، والنصارى والمشركين ممن أشرك ببعض من يعظمه من الأحياء والأموات من المشايخ وغيرهم، فيدعوه ويستغيث به في حياته وبعد مماته، فيراه قد أتاه وكلمه وقضى حاجته، وإنما هو شيطان تمثل على صورته ليغوي هذا المشرك.

والمبتلون بـ «العشق» لا يزال الشيطان يمثل لأحدهم صورة المعشوق أو يتصور بصورته فلا يزال يرى صورته مع مغيبه عنه بعد موته، فإنما جلاه الشيطان على قلبه، ولهذا إذا ذكر العبد الله الذكر الـذي يخنس منه الوسواس الخناس خنس هذا المثال الشيطاني، وصورة المحبوب تستولي على المحب أحياناً حتى لا يرى غيرها، ولا يسمع غير كلامها، فتبقى نفسه مشتغلة بها.

والذين يسلكون في محبة الله مسلكاً ناقصاً يحصل لأحدهم نوع من

ذلك يسمى «الاصطلام» و«الفناء» يغيب بمحبوبه عن محبته، وبمعروفه عن معرفته، وبمذكوره عن ذكره، حتى لا يشعر بشيء من أسماء الله وصفاته وكلامه وأمره ونهيه.

و «منهم» من قد ينتقل من هذا إلى «الاتحاد»، فيقول: أنا هو، وهو أنا، وأنا الله، ويظن كثير من المساكين أن هذا هو غاية السالكين، وأن هذا هو «التوحيد» الذي هو نهاية كل سالك. وهم غالطون في هذا؛ بل هذا من جنس قول النصارى، ولكن ضلوا لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية في الباطن في خبر الله وأمره.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

و (المقصود): أن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسيراً ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب، ولهذا قال بعض السلف: ما أنا على الشاب الناسك بأخوف مني عليه من سبع ضار يثب عليه من صبي حدث يجلس إليه.

وذلك أن النفس الصافية التي فيها رقة «الرياضة» ولم تنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذاباً تاماً، ولا قام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواها متى صارت تحت صورة من الصور استولت تلك الصورة عليها، كما يستولي السبع على ما يفترسه؛ فالسبع يأخذ فريسته بالقهر، ولا تقدر الفريسة على الامتناع منه، كذلك ما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه، فيبقى قلبه مستغرقاً في تلك الصورة أعظم من استغراق الفريسة في جوف الأسد؛ لأن المحبوب المراد هو غاية النفس، له عليها سلطان قاهر.

[القلب بين الحب والخوف:]

و «القلب» يغرق فيما يستولي عليه: إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور، والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقان فيه كما يغرق الغريق في الماء، فلا بد أن يستولي عليها ما يحيط بها من الأجسام، والقلوب يستولي عليها ما يتمثل لها من المخاوف، والمحبوبات والمكروهات، فالمحبوب يطلبه والمكروه يدفعه، والرجاء يتعلق بالمحبوب والخوف يتعلق بالمكروه، ولا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾[1]، ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون﴾[2].

وإذا دعا العبد ربه بإعطاء المطلوب ودفع المرهوب جعل له من الإيمان بالله ومحبته ومعرفته وتوحيده ورجائه وحياة قلبه واستنارته بنور الإيمان ما قد يكون أنفع له من ذلك المطلوب إن كان عرضاً من الدنيا، وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته وما يتبع ذلك فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب، وهو الدعاء والمطلوب الذكر والشكر، وقيام العبادة على أحسن الوجوه وغير ذلك. وهذا لبسطه موضع آخر.

[استيلاء الشهوات والأهواء على القلوب:]

و (المقصود): أن القلب قد يغمره فيستولي عليه ما يريده العبد، ويحبه وما يخافه ويحذره كائناً من كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بل قلوبهم في

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة يونس.

(٢) الآية ٥٣ من سورة النحل.

غمرة من هذا، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾[1]، فهي فيما يغمرها عما أنذرت به، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم، والعذاب الأليم. قال الله تعالى: ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾[2]: أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة. وقال تعالى: ﴿قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون﴾[3] الآيات: أي ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة، وما خلقوا له.

وهذا يشبه قوله: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾[4]، فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة؛ ولهذا قال من قال: «السهو» الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشر «الغفلة» و «الشهوة».

فـ «الغفلة» عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة.

و «الشهوة» تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه، غافلاً عن الله، رائداً غير الله، ساهياً عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران[5] حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد

---

(١) الآية ٦٣ من سورة المؤمنون.

(٢) الآية ٥٤ من سورة المؤمنون.

(٣) الآيتان ١٠ ــ ١١ من سورة الذاريات.

(٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف.

(٥) ران: أي غلب وغطى [لسان العرب، ج ١٣ ص ١٩٢].

القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس[١]، وإذا شيك[٢] فلا انتقش[٣]، إن أعطي رضي، وإن منع سخط»[٤].

جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث، و«القطيفة» هي التي يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف: إلبس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه، وهي كالبساط الذي تجلس عليه، و«الخميصة» هي التي يرتدي بها، وهذا من أقل المال. وإنما نبه به النبي صلى الله عليه وسلم على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك: فيه أرباب متفرقون، وشركاء متشاكسون.

ولهذا قال: «إن أعطي رضي، وإن منع سخط». فما كان يرضي الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده، إذ العبد يرضى باتصاله بهما، ويسخط لفقدهما. و«المعبود الحق» الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان، وتوحيد ومحبة، وذكر، وعبادة، فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب.

وكذلك من أحب شيئاً فلا بد من أن يتصوره في قلبه، ويريد اتصاله به بحسب الإمكان.

قال الجنيد[٥]: لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى

---

(١) انتكس: أي انقلب على رأسه [لسان العرب، ج ٦ ص ٢٤١].

(٢) شيك: أي دخل في جسمه شوكة [لسان العرب، ج ١٠ ص ٤٥٣].

(٣) المقصود إذا دخلت في جسمه شوكة فلا أخرجها من موضعها وهذا دعاء عليه.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ج ٦ ص ٨١ مع اختلاف في اللفظ؛ ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب في المكثرين، ج ٢ ص ١٣٨٦ مع اختلاف في اللفظ.

(٥) الجنيد: هو أبو القاسم الخزاز القواريري، كان أبوه يبيع الزجاج وكان هو خزازاً وأصله من نهاوند إلا أن مولده ومنشأه ببغداد. توفي يوم السبت في شوال سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين [صفة الصفوة، ج ٢ ص ٤١٦. وانظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم، ج ١٠ ص ٢٥٥؛ ووفيات الأعيان، ج ١ ص ٣٧٢؛ والأعلام، ج ٢ ص ١٤١].

حراً. وهذا مطابق لهذا الحديث، فإنه لا يكون عبداً لله خالصاً مخلصاً دينه لله كله حتى لا يكون عبداً لما سواه، ولا فيه شعبة، ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله، فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير، ففيه من الشرك بقدر محبته، وعبادته لذلك الغير زيادة.

قال «الفضيل بن عياض»(١): والله ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية. وقال زيد بن عمرو بن نفيل(٢):

أرباً واحداً، أم ألف رب أدين إذا انقسمت الأمور؟!

روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد بغى واعتدى ونسي المبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد رغب يذله ويزيله عن الحق، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله»(٣). قال

---

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي أبو علي. الزاهد الخراساني... ولد بخراسان بكورة ابيورد وقدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث من منصور وغيره ثم تعبد وانتقل إلى مكة فنزلها إلى أن مات بها في أول سنة سبع وثمانين ومائة، وكان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً [تهذيب التهذيب، ج ٨ ص ٥٣٨].

(٢) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزي القرشي العدوي، نصير المرأة في الجاهلية وأحد الحكماء، وهو ابن عم عمر بن الخطاب. لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها. توفي سنة ٦٠٦م [الأعلام، ج ٣ ص ٦٠].

(٣) الحديث رواه: الترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٤ ص ٥٠، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بالقوي. ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٢٤ ص ١٥٦/١٥٧؛ ورواه الحاكم، ج ٤ ص ٣١٦. وقال الذهبي في التلخيص: إسناده مظلم.

الترمذي: غريب. وفي الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه. والله أعلم.

وكذلك أحاديث وآثار كثيرة رويت في معنى ذلك. كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[1].

وطالب الرئاسة ـ ولو بالباطل ـ ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً. والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل، ويبغض الكذب والظلم.

فإذا قيل: الحق والصدق والعدل الذي يحبه الله أحبه، وإن كان فيه مخالفة هواه؛ لأن هواه قد صار تبعاً لما جاء به الرسول. وإذا قيل: الظلم والكذب فالله يبغضه، والمؤمن يبغضه، ولو وافق هواه.

وكذلك طالب «المال» ـ ولو بالباطل ـ كما قال تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾[2]، وهؤلاء هم الذين قال [فيهم]: «تعس عبد الدينار»[3] الحديث. فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعباداً من الدرهم والدينار من الشهوات والأهواء، والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته؟! لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات، كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته، لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه، ويزيغه عن محبة غير محبوبه، وكذلك المكروه يدفعه ويزيله ويشغله عن عبادة الله تعالى.

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٥٨ من سورة التوبة.
(٣) انظر الحديث وتخريجه ص ٣٥ ـ ٣٦.

ولهذا روى الإمام أحمد في مسنده وغيره: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «الفقر تخافون؟! لا أخاف عليكم الفقر. إنما أخاف عليكم الدنيا، حتى إن قلب أحدكم إذا زاغ لا يزيغه إلا هي»[1].

وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه، والذين يبغضونه كأعدائه، فالذين يحبونه يجذبونه إليهم، فإذا لم تكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يقطعه عن الله، والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونه بأذاهم عن الله، ولو أحسن إليه أصدقاؤه الذين يحبونه لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم، وانجذاب قلبه إليهم، ولو كان على غير الاستقامة، وأوجب مكافأته لهم، فيقطعونه عن الله وعبادته.

[خلاص القلب من الفتنة:]

فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل، فيكون حبه لله ولما يحبه الله، وبغضه لله ولما يبغضه الله، وكذلك موالاته ومعاداته، وإلا فمحبة المخلوق تجذبه، وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه، ثم قد يكون هذا أقوى، وقد يكون هذا أقوى، فإذا كان هو غالباً لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه، ولا محبوباته إليها؛ لكونه غالباً لهواه ناهياً لنفسه عن الهوى، لما في قلبه من خشية الله ومحبته التي تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات.

وأما حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقوتهم إليهم، فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته، وإلا جذبوه وأخذوه إليهم، كحب امرأة العزيز ليوسف: فإن قوة «يوسف» ومحبته لله

(١) الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٦ ص ٢٤ مع اختلاف في اللفظ؛ وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج ١ ص ٤ مع اختلاف يسير في اللفظ.

وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها، هذا إذا أحب أحدهم صورته، مع أن هنا الداعي قوي منه ومنهم، فهنا المعصوم من عصمه الله، وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»[1].

[حال الموالين لغير الله:]

وقد يحبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك؛ فالفتنة في هذا أعظم؛ إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية، وخشية وتوحيد تام، فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون. وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم، إن لم يفعلها وإلا نقص الحب، أو حصل نوع بغض، وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ من حبه، فصار مبغوضاً بعد أن كان محبوباً، فأصدقاء الإنسان يحبون استخدامه واستعماله في أغراضهم، حتى يكون كالعبد لهم، وأعداؤه يسعون في أذاه وإضراره، وأولئك يطلبون منه انتفاعهم، وإن كان مضراً له مفسداً لدينه لا يفكرون في ذلك، وقليل منهم الشكور.

فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره، وإنما يقصدون أغراضهم به، فإن لم يكن الإنسان عابداً الله، متوكلاً عليه موالياً له وموالياً فيه ومعادياً، وإلا أكلته الطائفتان، وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة.

وهذا هو المعروف من أحوال بني آدم، وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن. قوم يوالون زيداً ويعادون عمرواً.

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الرضاع، ج ٢ ص ٣١٩؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١ ص ٢٦.

وآخرون بالعكس، لأجل أغراضهم، فإذا حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبوه من زيد انقلبوا إلى عمرو، وكذلك أصحاب عمرو كما هو الواقع بين أصناف الناس.

وكذلك «الرأس» من الجانبين، يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم إذا لم تكن الموالاة لله أضر عليك من أولئك، فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه: إما بقتله، أو بأخذ ماله، وإما بإزالة منصبه، وهذا كله ضرر دنيوي لا يعتد به إذا سلم العبد، وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم. فهم لا يبالون بذلك. وأما «دين العبد» الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه.

[ضرر الموالاة لأجل المصلحة:]

وأما أولياؤه الذين يوالونه للأغراض، فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك، فإن لم يفعل انقلبوا أعداء. فدخل بذلك عليه الأذى من «جهتين»:

من جهة مفارقتهم.
ومن جهة عداوتهم.

وعداوتهم أشد عليه من عداوة أعدائه؛ لأنهم قد شاهدوا منه. وعرفوا ما لم يعرفه أعداؤه. فاستجلبوا بذلك عداوة غيرهم فتتضاعف العداوة.

وإن لم يجب مفارقتهم احتاج إلى مداهنتهم[1] ومساعدتهم على ما يريدونه، وإن كان فيه فساد دينه. فإن ساعدهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيباً وافراً وحظاً تاماً من ظلمهم وجورهم وطلبوا منه أيضاً أن يعاونهم على أغراضهم، ولو فاتت أغراضه الدنيوية. فكيف

---

(١) المداهنة: المصانعة واللين [لسان العرب، ج ١٣ ص ١٦٢].

بالدينية إن وجدت فيه أو عنده!! فإن الإنسان ظالم جاهل لا يطلب إلا هواه.

فإن لم يكن هذا في الباطن يحسن إليهم، ويصبر على أذاهم، ويقضي حوائجهم لله، وتكون استعانته عليهم بالله تامة، وتوكله على الله تام. وإلا أفسدوا دينه ودنياه، كما هو الواقع المشاهد من الناس ممن يطلب الرئاسة الدنيوية، فإنه يطلب منه من الظلم والمعاصي ما ينال به تلك الرئاسة، ويحسن له هذا الرأي، ويعاديه إن لم يقم معه، كما قد جرى ذلك مع غير واحد.

وذلك يجري فيمن يحب شخصاً لصورته، فإنه يخدمه ويعظمه ويعطيه ما يقدر عليه، ويطلب منه من المحرم ما يفسد دينه.

وفيمن يحب صاحب «بدعة» لكونه له داعية إلى تلك البدعة، يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل. وإلا عاداه، ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل؛ لأجل الأتباع والمحبين، ويعادون أهل الحق ويهجنون[1] طريقهم.

فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه، ومن أحب أحداً لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه؛ فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي، والحيلولة بينه وبينه رحمة في حقه، وأصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه، فأي صداقة هذه؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه في أغراضهم، وفيما يحبونه، وكلاهما ضرر عليه.

قال تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، ورأوا العذاب،

---

(١) يهجّنون: أي يقبّحون [لسان العرب، ج ١٣ ص ٤٣٤].

وتقطعت بهم الأسباب﴾[1]. قال الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد: هي المودات التي كانت لغير الله، والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وقال الذين اتَّبعوا: لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار﴾[2]. فالأعمال التي أراهم الله حسرات عليهم: هي الأعمال التي يفعلها بعضهم مع بعض في الدنيا كانت لغير الله، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله. فالخير كله في أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[سبب المحبة:]

ومما يحقق هذه الأمور أن المحب يجذب، والمحبوب يجذب. فمن أحب شيئاً جذبه إليه بحسب قوته، ومن أحب صورة جذبته تلك الصورة إلى المحبوب الموجود في الخارج بحسب قوته، فإن المحب علته فاعلية، والمحبوب علته غائية، وكل منهما له تأثير في وجود المعلول، والمحب إنما يجذب المحبوب بما في قلب المحب من صورته التي يتمثلها، فتلك الصورة تجذبه بمعنى انجذابه إليها، لأنها هي في نفسها قصد وفعل، فإن في المحبوب من المعنى المناسب ما يقتضي انجذاب المحب إليه كما ينجذب الإنسان إلى الطعام ليأكله، وإلى امرأة ليباشرها، وإلى صديقه ليعاشره، وكما تنجذب قلوب المحبين لله ورسوله إلى الله ورسوله، والصالحين من عباده لما اتصف به سبحانه من الصفات التي يستحق لأجلها أن يحب ويعبد.

بل لا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته و ﴿لو كان فيهما

---

(١) الآية ١٦٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٦٧ من سورة البقرة.

آلهة إلا الله لفسدتا﴾[1]، فإن محبة الشيء لذاته شرك، فلا يحب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة.

والله تعالى خلق في النفوس حب الغذاء، وحب النساء، لما في ذلك من حفظ الأبدان وبقاء الإنسان؛ فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل والمقصود: بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده، ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره.

وإنما تحب الأنبياء والصالحون تبعاً لمحبته، فإن من تمام حبه حب ما يحبه، وهو يحب الأنبياء والصالحين، ويحب الأعمال الصالحة، فحبها لله هو من تمام حبه، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب الله، فالمخلوق إذا أحب لله كان حبه جاذباً إلى حب الله، وإذا تحاب الرجلان في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، كان لكل منهما جاذباً للآخر إلى حب الله، كما قال تعالى: «حقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتجالسين فيّ، وحقَّت محبتي للمتباذلين[2] فيّ، وإن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يقربهم من الله وهم قوم تحابوا بروحٍ الله على غير أموال يتباذلونها، ولا أرحام يتواصلون بها، إن لوجوههم لنوراً، وإنهم لعلى كراس من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»[3].

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

(٢) المتباذلين فيّ: الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله في الجهاد وغيره مما أمر به.

(٣) رواه مالك في الموطأ في كتاب الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله، ج ٢ ص ٩٥٤ ولفظه: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ». ورواه الإمام أحمد في مسنده مع اختلاف في اللفظ، ج ٥ ص ٢٢٩/٢٣٧. قال المنذري في الترغيب والترهيب، ج ٤ ص ١٩ بإسناد صحيح. ورواه ابن حبان في صحيحه. انظر موارد الظمآن، ص ٦٢٢.

فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله. كما إذا ذكرت النبـي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء قبله، والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك، فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله، المنعم عليهم، وبهم، إذا كنت تحبهم لله، فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه، فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله.

وهكذا إذا كان الحب لغير الله، كما إذا أحب كل من الشخصين الآخر بصورة: كالمرأة مع الرجل، فإن المحب يطلب المحبوب والمحبوب يطلب المحب، بانجذاب المحبوب، فإذا كانا متحابين صار كل منهما جاذباً مجذوباً من الوجهين، فيجب الاتصال، ولو كان الحب من أحد الجانبين لكان المحب يجذب المحبوب والمحبوب يجذبه، لكن المحبوب لا يقصد جذبه، والمحب يقصد جذبه وينجذب.

وهذا «سبب التأثير في المحبوب» إما تمثل يحصل في قلبه فينجذب وإما أن ينجذب بلا محبة: كما يأكل الرجـل الطعـام، ويلبس الثوب، ويسكن الدار، ونحو ذلك من المحبوبات التي لا إرادة لها.

وأما «الحيوان» فيحب بعضه بعضاً بكونه سبباً للإحسان إليه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، لكن هذا في الحقيقة إنما هو محبة الإحسان، لا نفس المحسن، ولو قطع ذلك لاضمحل ذلك الحب وربما أعقب بغضاً، فإنه ليس لله عز وجل.

فإن من أحب إنساناً لكونه يعطيه، فما أحب إلا العطاء، ومن قال: إنه يحب من يعطيه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول، وكذلك من أحب إنساناً لكونه ينصره إنما أحب النصر لا الناصر، وهذا كله من اتبـاع ما تهوى الأنفس، فإنه لم يحب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جـلب منفعة

أو دفع مضرة، فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع المضرة وإنما أحب ذلك لكونه وسيلة إلى محبوبه، وليس هذا حباً لله ولا لذات المحبوب.

وعلى هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم، بل ربما أدى ذلك إلى النفاق والمداهنة، فكانوا في الآخرة من الأخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين. وإنما ينفعهم في الآخرة الحب في الله ولله وحده، وأما من يرجو النفع والنصر من شخص، ثم يزعم أنه يحبه لله فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال.

وإنما ينفع العبد الحب لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء والصالحين لكون حبهم يقرب إلى الله ومحبته وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة الله لهم.

ونبينا كان يعطي المؤلفة قلوبهم ويدع آخرين هم أحب إليه من الذي يعطي، يكلهم إلى ما في قلوبهم من الإيمان. وإنما كان يعطي المؤلفة قلوبهم لما في قلوبهم من الهلع والجزع، ليكون ما يعطيهم سبباً لجلب قلوبهم إلى أن يحبوا الإسلام فيحبوا الله، فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب إلى حب الله عز وجل وصرفها عن ضد ذلك، ولهذا كان يعطي أقواماً خشية أن يكبهم[1] الله على وجوههم في النار فمنعهم بذلك العطاء عما يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله. وقد قال: ﴿من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان﴾[2]، وفي صحيح البخاري عنه صلى الله

---

(١) يكبهم: أي يقلبهم [انظر لسان العرب، ج ١ ص ٦٩٥].

(٢) الحديث رواه: أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ج ٥ ص ٦٠؛ والترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٤ ص ٧٨ وقال هذا حديث منكر حسن؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ٤٣٨/٤٣٩/٤٤٠.

عليه وسلم أنه قال: «إني والله إنما أنا قاسم لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً ولكن أضع حيث أمرت»[1].

[سيطرة المحبوب على المحب:]

وصورة المحبوب المتمثلة في النفس يتحرك لها المحب ويريد لها ويحب ويبغض ويبتهج وينشرح عند ذكرها من أي جنس كانت، فتبقى هي كالآمر الناهي له: ولهذا يجد في نفسه كأنها تخاطبه بأمر ونهي وغير ذلك كما يرى كثير من الناس من يحبه ويعظمه في منامه وهو يأمره وينهاه ويخبره بأمور.

[تدليس إبليس على المحبين:]

والمشركون تتمثل لهم الشياطين في صور من يعبدونه، تأمرهم وتنهاهم.

والقائلون بالشاهد والمنتسبون إلى السلوك يقول أحدهم: إنه يخاطب في باطنه على لسان الشاهد، فمنهم من يصلي بالليل وذاك بإزائه ليشاهده في الضوء، ومنهم من يشاهده في حال السماع في غيره، ويظنون أنهم يخاطبون ويجدون المريد في قلوبهم بذلك، وذلك لأنهم يتمثلونه في أنفسهم، وربما كان الشيطان يتمثل في صورته فيجدون في نفوسهم خطاباً من تلك الصورة فيقولون خوطبنا من جهته. وهذا وإن كان موجوداً في المخاطب فمن المخاطب له؟ فالفرقان هنا. فإنما ذلك المخاطب من وسواس الشيطان والنفس.

وقد يخاطبون بأشياء حسنة رشوة منه لهم، ولا يخاطبون بما يعرفون

---

(١) رواه البخاري مختصراً في كتاب فرض الخمس، باب قوله تعالى: ﴿فإن لله خمسه وللرسول﴾ ج ٦ ص ٢١٧.
ورواه أحمد في مسنده، ج ٢ ص ٤٨٢ مع اختلاف يسير في اللفظ.

أنه باطل، لئلا ينفرون منه، بل الشيطان يخاطب أحدهم بما يرى أنه حق، والراهب إذا راض نفسه فمرة يرى في نفسه صورة التثليث، وربما خوطب منها لأنه كان قد يتمثلها قبل ذلك، فلما انصقلت نفسه بالرياضة ظهرت له، والمؤمن الذي يحب الله ورسوله يرى الرسول في منامه بحسب إيمانه، وكذلك يرى الله تعالى في منامه بحسب إيمانه، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

ولهذا كثير من أهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ويزعم أنه مأمور بذلك، ويخاطب به ويظن أن الله هو الذي أمره بذلك، والله منزه عن ذلك، وإنما الآمر له بذلك النفس والشيطان وما في نفسه من الشرك، إذ لو كان مخلصاً لله الدين لما عرض له شيء من ذلك، فإن هذا لا يكون إلا لمن فيه شرك في عبادته، أو عنده بدعة، ولا يقع هذا لمخلص متمسك بالسنة البتة.

وإذا كانت «الرؤيا» على «ثلاثة أقسام»:

رؤيا من الله.
ورؤيا من حديث النفس.
ورؤيا من الشيطان.

فكذلك ما يلقى في نفس الإنسان في حال يقظته «ثلاثة أقسام».

ولهذا كانت الأحوال «ثلاثة» رحماني، ونفساني، وشيطاني.

وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف «ثلاثة أصناف» ملكي ونفسي، وشيطاني، فإن الملك له قوة، والنفس لها قوة، والشيطان له قوة، وقلب المؤمن له قوة. فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل.

وقد اشتبه هذا بهذا على طوائف كثيرة، فلم يفرقوا بين أولياء الله

وأعداء الله، بل صاروا يظنون في من هو من جنس المشركين والكفار ــ أهل الكتاب من وجوه كثيرة ــ أنه من أولياء الله المتقين. والكلام في هذا مبسوط في موضع آخر[1].

ولهذا في هؤلاء من يرى جواز قتال الأنبياء، ومنهم من يرى أنه أفضل من الأنبياء، إلى أنواع أخر. وذلك لأنه حصل لهم من الأنواع الشيطانية والنفسانية ما ظنوا أنها من كرامات الأولياء، فظنوا أنهم منهم، فكان الأمر بالعكس. وأصل هذا أنهم تعبدوا بما تحبه النفس؛ وأما العبادة بما يحبه الله ويرضاه فلا يحبونه ولا يريدونه وحده، ويرون أنهم إذا عبدوا الله بما أمر به ورسله حط لهم عن منصب الولاية، فيحدثون محبة قوية وتألهاً وعبادة وشوقاً وزهداً؛ ولكن فيه شرك وبدعة.

ومحبة «التوحيد» إنما تكون لله وحده على متابعة رسوله؛ كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾[2]؛ فلهذا يكون أهل الاتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم؛ يحبون لله، ويبغضون له. وهم على ملة إبراهيم. والذين معه ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم، ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم. وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾[3] وأولئك محبتهم فيها شرك وليسوا متابعين للرسول، ولا مجاهدين في سبيل الله، فليست هي المحبة الإخلاصية. فإنها مقرونة بالتوحيد. ولهذا سمى أبو طالب المكي كتابه «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد».

والله سبحانه أعلم.

---

(١) يعني رسالته المسماة الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
(٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران.
(٣) الآية ٤ من سورة الممتحنة.

[الـزهــد والــورع :]

قال شيخ الإسلام، رَحِمَهُ الله :

قد كتبت في كراسة الحوادث فضلاً في «جماع الزهد والورع» :

وأن «الزهد» هو عما لا ينفع إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحاً؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه. وأما المنافع الخالصة أو الراجحة: فالزهد فيها حمق.

وأما «الورع» فإنه الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر. فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه.

وأما «الورع» عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة ـ لما تقترن به من جلب منفعة راجحة، أو دفع مضرة أخرى راجحة ـ فجهل وظلم. وذلك يتضمن «ثلاثة أقسام» لا يتورع عنها: المنافع المكافأة، والراجحة والخالصة: كالمباح المحض، أو المستحب، أو الواجب فإن الورع عنها ضلالة.

وأنا أذكر هنا تفصيل ذلك فأقول:

«الزهد» خلاف الرغبة. يقال: فلان زاهد في كذا. وفلان راغب فيه. و«الرغبة» هي من جنس الإرادة. فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة له، إما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة، بحيث لا يكون لا مريداً له ولا كارهاً له، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه.

وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه؛ ولهذا كان أساس الطريق الإرادة. كما قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة

والعشي يريدون وجهه﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾[2] ونظائره متعددة.

[الزهد بين الذم والمدح:]

كما رغب في «الزهد» وذم ضده في قوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ألهٰكم التكاثر﴾[4] السورة. وقال تعالى: ﴿وتأكلون التراث أكلاً لماً وتحبون المال حباً جماً﴾[5]، وقال: ﴿إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد﴾[6]، وقال تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم﴾[7] الآية. وهذا باب واسع.

وإنما المقصود هنا تميز «الزهد الشرعي» من غيره، وهو الزهد المحمود، وتميز «الرغبة الشرعية» من غيرها، وهي الرغبة المحمودة، فإنه كثيراً ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضل سعي صاحبه.

وأما «الورع» فهو اجتناب الفعل واتقاؤه، والكف والإمساك عنه

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ١٩ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ١٥ من سورة هود.
(٤) الآية ١ من سورة التكاثر.
(٥) الآيتان ١٩ ــ ٢٠ من سورة الفجر.
(٦) الآيات ٦ ــ ٨ من سورة العاديات.
(٧) الآية ٢٠ من سورة الحديد.

والحذر منه، وهو يعود إلى كراهة الأمر والنفرة منه والبغض له وهو أمر وجودي أيضاً ـ وإن كان قد اختلف في المطلوب بالنهي. هل هو عدم المنهي عنه، أو فعل ضده؟ وأكثر أهل الإثبات على الثاني ـ فلا ريب أنه لا يسمى ورعاً، ومتورعاً، ومتقياً، إلا إذا وجد منه الامتناع والإمساك الذي هو فعل ضد المنهي عنه.

و «التحقيق» أنه مع عدم المنهي عنه يحصل له عدم مضرة الفعل المنهي عنه، وهو ذمه وعقابه ونحو ذلك، ومع وجود الامتناع والاتقاء والاجتناب يكون قد وجد منه عمل صالح وطاعة وتقوى، فيحصل له منفعة هذا العمل، من حمده وثوابه، وغير ذلك. فعدم المضرة لعدم السيئات، ووجود المنفعة لوجود الحسنات.

[الفرق بين الزهد والورع :]

فتلخص أن «الزهد» من باب عدم الرغبة والإرادة في المزهود فيه. و «الورع» من باب وجود النفرة والكراهة للمتورع عنه، وانتفاء الإرادة إنما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة أو راجحة، وأما وجود الكراهة فإنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة، فأما إذا فرض ما لا منفعة فيه ولا مضرة، أو منفعته ومضرته سواء من كل وجه؛ فهذا لا يصلح أن يراد، ولا يصلح أن يكره، فيصلح فيه الزهد، ولا يصلح فيه الورع، فظهر بذلك أن كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد، من غير عكس، وهذا بين. فإن ما صلح أن يكره وينفر عنه صلح أن لا يراد ولا يرغب فيه، فإن عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة؛ ووجود الكراهة مستلزم عدم الإرادة من غير عكس. وليس كل ما صلح أن لا يراد يصلح أن يكره؛ بل قد يعرض من الأمور ما لا تصلح إرادته ولا كراهته، ولا حبه ولا بغضه ولا الأمر به، ولا النهي عنه.

وبهذا يتبين: أن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع؛

وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع. وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل.

وإنما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل. هل هو مأمور به؟ أو منهي عنه؟ أو مباح؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأموراً به أو منهياً عنه، أو اقترن بالمأمور به ما يجعله منهياً عنه وبالعكس.

فعند اجتماع المصالح والمفاسد والمنافع والمضار وتعارضها؛ يحتاج إلى الفرقان.

[هل الثواب على قدر المشقة؟ :]

وقـــال:

قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق، كما قد يستدل به طوائف على أنواع من «الرهبانيات، والعبادات المبتدعة» التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات، ومثل التعمق والتنطع[1] الذي ذمه النبي صلى الله عليه وسلم ــ حيث قال: «هلك المتنطعون»[2]؛ وقال: «لو مد لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم»[3] ــ مثل الجوع أو العطش

---

(١) التنطع: التعمق [مختار الصحاح، ص ٦٦٦].
وهو هنا بمعنى المغالاة والمبالغة المخالفة للسُّنَّة.

(٢) الحديث رواه: مسلم في كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ج ٤ ص ٢٠٥٥؛ وأبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، ج ٥ ص ١٥؛ والإمام أحمد في مسنده، ج ١ ص ٣٨٦.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التمني، باب ما يجوز من اللوِّ وقوله تعالى: ﴿ولو أن لي بكم قوة﴾ ج ١٣ ص ٢٢٥ وزاد: «إني أظل يطعمني ربي ويسقيني». وأخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، ج ٢ ص ٧٧٥/٧٧٦. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣ ص ١٩٣.

المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة: مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائماً ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه»[1]. رواه البخاري، وهذا باب واسع.

وأما الأجر على قدر الطاعة فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر كما يسر الله على أهل الإسلام «الكلمتين» وهما أفضل الأعمال؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[2]. أخرجاه في الصحيحين.

ولو قيل الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحاً اتصاف «الأول» باعتبار تعلقه بالأمر و«الثاني» باعتبار صفته في نفسه. والعمل تكون منفعته وفائدته تارة من جهة الأمر فقط، وتارة من جهة صفته في نفسه، وتارة من كلا الأمرين. فبالاعتبار الأول ينقسم إلى طاعة ومعصية،

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ولفظه: «مره فليتكلم وليستظلَّ وليقعد وليتمَّ صومه» ج ١١ ص ٥٨٦؛ وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية، ج ٣ ص ٥٩٩/٦٠٠؛ وابن ماجه في كتاب الكفارات، باب من خلط في نذره طاعة بمعصية؛ ومالك في الموطأ في كتاب الأيمان والنذور، باب ما لا يجوز من النذور في معصية الله، ج ٢ ص ٤٧٥؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ١٦٨.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ ج ١٣ ص ٥٣٧؛ ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ج ٤ ص ٢٠٧٢؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ١٧٤/١٧٥؛ وابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل التسبيح، ج ٢ ص ١٢٥١؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٣٢.

وبالثاني ينقسم إلى حسنة وسيئة، والطاعة والمعصية اسم له من جهة الأمر، والحسنة والسيئة اسم له من جهة نفسه[1] وإن كان كثير من الناس لا يثبت إلا «الأول»، كما تقوله الأشعرية وطائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم.

ومن الناس من لا يثبت إلا «الثاني» كما تقوله المعتزلة وطائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم، والصواب إثبات الاعتبارين كما تدل عليه نصوص الأئمة وكلام السلف وجمهور العلماء من أصحابنا وغيرهم.

فأما كونه مشقاً، فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً ففضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة، كما أن من كان بعده عن البيت في الحج والعمرة أكثر: يكون أجره أعظم من القريب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في العمرة: «أجرك على قدر نصبك»[2] لأن الأجر على قدر العمل في بعد المسافة، وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر، وكذلك الجهاد، وقوله صلى الله عليه وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأه ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران»[3].

---

(١) خرم بالأصل مقدار ثلث سطر «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٦٢١».

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب، ج ٣ ص ٦١٠؛ ومسلم في كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، ج ٢ ص ٨٧٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ٤٣.

(٣) الحديث رواه: البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة (٨٠) مع اختلاف في اللفظ؛ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، ج ١ ص ٥٥٠؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن، ج ٢ ص ١٤٨؛ والترمذي في أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل قارىء القرآن، ج ٤ ص ٣٤٤؛ وابن ماجه في كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، ج ٢ ص ١٢٤٢؛ والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل من يقرأ القرآن ويشتد عليه، ج ٢ ص ٤٤٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ٤٨.

فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل؛ ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب، هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج، ولا أريد بنا فيه العسر؛ وأما في شرع من قبلنا فقد تكون المشقة مطلوبة منهم. وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوباً مقرباً إلى الله؛ لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد، وهذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم.

ولهذا تجد هؤلاء مع من شابههم من الرهبان يعالجون الأعمال الشاقة الشديدة المتعبة من أنواع العبادات والزهادات، مع أنه لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ولا منفعة إلا أن يكون شيئاً يسيراً لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه.

ونظير هذا الأصل الفاسد مدح بعض الجهال بأن يقول: فلان ما نكح ولا ذبح. وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون، وأما الحنفاء، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وهذه الأشياء هي من الدين الفاسد وهو مذموم كما أن الطمأنينة إلى الحياة الدنيا مذموم.

---

(١) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج ٩ ص ١٠٤؛ ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، ج ٢ ص ١٠٢٠؛ والنسائي في كتاب النكاح، باب النهي عن التبتل، ج ٦ ص ٦٠؛ والدارمي في كتاب النكاح، باب النهي عن التبتل، ج ٢ ص ١٣٣؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ١٥٨.

[أقسام الناس:]

والناس أقسام:

أصحاب «دنيا محضة»، وهم المعرضون عن الآخرة.

وأصحاب «دين فاسد»، وهم الكفار والمبتدعة الذين يتدينون بما لم يشرعه الله من أنواع العبادات والزهادات.

و «القسم الثالث» وهم أهل الدين الصحيح، أهل الإسلام المستمسكون بالكتاب والسنة والجماعة، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *